المحاضرة العاشرة

نظرية الانعكاس

مقدمة:

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ظهر أدب جديد أصطلح عليه بالأدب الواقعي، له اتجاه يخالف اتجاهات الأدب الكلاسيكي والأدب الرومانسي، وبظهور هذا الأدب ظهرت نظرية جديدة تسمى نظرية الانعكاس، اهتمت بدراسة العلاقة بين الأدب والمجتمع من خلال رصد التأثيرات المتبادلة بينهما.

1- نظرية الانعكاس ومقولاتها الكبرى:

يرى أصحاب هذه النظرية أن نشأة الأدب انعكاس للواقع الاجتماعي، فكما نتجت الكلاسيكية عن العصر الإقطاعي، والرومانسية عن البرجوازية، فإن نظرية الانعكاس ارتبطت بالواقعية الاشتراكية. ويؤكد أصحاب هذه النظرية ضرورة ارتباط الأدب بالواقع الذي أنتج فيه، وأن وظيفة الأدب تهدف إلى شحذ قوة ادراك المتلقي و فهم العالم و ادراك الواقع الاجتماعي، ومشاركة الأديب في تجربته بشكل يؤدي إلى تغيير البنية التحتية أو تعديلها

وقد سبق ظهور هذه النظرية عدة محاولات حاول أصحابها الربط بين الأدب والبيئة والحياة الاجتماعية منها:

١- محاولة الفيلسوف الفرنسي هيبوليت تين (H.Taine (1829-1893

في مقدمة كتابه **تاريخ الأدب الإنجليزي** الذي نُشر عام 1868 م و لاقت نظريته اهتماما كبيرا من قبل النقاد، والذي يرى فيه أن الأعمال الأدبية وثائق وآثار وسجلات تاريخية تتأثر بالعوامل التالية:

أ- **الجنس:** أو ما يسمى بالعرق أو النوع، فأدب كل أمة يختلف عن أدب أمة أخرى، و يرجع ذلك إلى تباين الظروف المعيشية و الوطن، حيث يكتسب الجنس خصائصه المميزة من البيئة و العادات والتقاليد المتوارثة، فضلا عن الدوافع و الرغبات الدفينة و الملامح الجسدية.

ب- **البيئة:** ويقصد بها المناخ والنظم الاجتماعية، فهذه الأوضاع تتحكم بالأدب والحياة العقلية والمزاج الإنساني.

ج- **العصر:** و هو الزمن ، فالأفكار والمفاهيم المسيطرة على روح العصر تؤثر في العمل الأدبي.

لم ترق هذه المحاولة إلى نظرية في نظر سانت بيف، لأنها لم تتحدث عن أثر العلاقات الاجتماعية و المجتمع في الإنتاج الأدبي.

يقول: " الفن جوهر التا ريخ وخلاصته وهو بالضرورة يعبر عن الحقيقة التاريخية، حقيقة الانسان في زمن معين ومكان معين، إن الأعمال الفنية وثائق، والآثار والأزمان تتركز في الأعمال العظيمة".

٢- محاولة الأديب الروسي ليو تولستوي (1828-1910)

ركز دراسته على العلاقة بين الأدب والقراء، وذهب إلى أن وظيفة الفن هي أن ينقل إحساس الفنان إلى المتلقي، فمهمة الفن مهمة توصيلية، وهو إيصال انفعال الفنان إلى المتلقي و بالتحديد إلى كل الناس البسطاء، وإن لم يستطع أن يفعل ذلك فلا يعد فناً، وينفي أن يكون للفن علاقة بالواقع الاجتماعي.

2- الأسس الفكرية لنظرية الانعكاس:

تستند نظرية الانعكاس إلى الفلسفة الواقعية المادية، التي ترى بأن الوجود الاجتماعي أسبق في الظهور من وجود الوعي، وأن أشكال الوجود الاجتماعي هي التي تحدد أشكال الوعي.

و قد بلور كارل ماركس فكرة الفلسفة الواقعية في العلاقة بين البنية التحتية (علاقة الإنتاج و قوى الإنتاج) و البنية الفوقية (الثقافة والفلسفة والقوانين والفكر والفن). حيث أوضح أن هذه العلاقة متبادلة ومتفاعلة مما يجعلها علاقة جدلية قائمة على التأثير و التأثر، بمعنى أن أي تغير في البناء الاقتصادي والاجتماعي يؤدي إلى تغير في شكل الوعي أو مجمل البناء الفوقي، الذي يعود فيؤثر في البناء التحتي من خلال تثبيته أو تعديله أو تغييره. فالواقع المادي في تفاعل مستمر مع الأفكار والتغيرات التي تحدث في المجتمع نتيجة التحولات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية.

كما يؤكد كارل ماركس على أن الأدب و الفن هما سلاح الطبقية، ففي المجتمع المقسم إلى طبقات، يعكس الأدب الفن بطريقة مباشرة أو غير مباشرة معنويات طبقة معينة و آرائها السياسية و ذوقها الجمالي.

3- أنواع الانعكاس:

ويرى جورج لوكاش G.Luckacs أن للفن و الأدب بعدا طبقيا اجتماعيا، فهناك ثقافة سائدة هي ثقافة الطبقة المسيطرة و ثقافة أخرى هي ثقافة الطبقات المقهورة، وهنا يصبح الانعكاس أنواعا، انعكاس طبيعي (مزيف) وانعكاس واقعي (صادق)، وهذا يعني أن الانعكاس ليس بسيطا وإنما هو عملية متداخلة مركبة، مما يؤكد أن الأعمال الأدبية لها صلة بالواقع، لكن ليست كلها واقعية.

قد اعتبر رونيه ويليك أنّ نظرية الانعكاس تعني "دراسة مبادئ الأدب وتصنيفاته ومستوياته، واعتبرها مدخلا استطيقيا جماليا للدراسة الأدبية، أما التاريخ الأدبي فيرى ويليك أنه يدرس الأدب في حركته، فيرى أن الأدب نظام اجتماعي، وإذا كان الأدب يمثل الحياة، فإن الحياة ذاتها حقيقة اجتماعية، والكاتب المسرحي حينما يصور لنا كائنا إنسانيا كاملا فهو لا يعيد تصوير الإنسان فقط بل يعيد تصوير المجتمع الذي ينتمي إليه هذا الإنسان، وهذا المجتمع ليس إلا ذرة من الكون ، ومن ثمة فالفن الذي خلق هذا الإنسان يعكس لنا الكون كله.

وفسر بول فاليري Paul Valery العلاقة بين الفنان والآخرين، حيث يرى بأن الفنان أثناء عملية الخلق الفني يضع نصب عينيه الذين سيتوجه إليهم بعمله ومدى تأثيره فيهم،وهو ما يبرز دور القارئ في العملية الأدبية من منظور نظرية الانعكاس.

4- مفهوم الالتزام في نظرية الانعكاس:

ارتبطت هذه النظرية بمفهوم الالتزام والذي يتداخل مع المعنى الأخلاقي لدى البعض، لكن المعنى الحقيقي للالتزام في الواقعية الاشتراكية هو التعمق في تحليل العلاقات الاجتماعية من الداخل من منطلق الالتزام بمبادئ الفلسفة التي يصدر عنها الأديب وخصوصا الواقعية الاشتراكية، أي أنّ الالتزام يُقصد به أن يكون أدبه هادفا يحمل رسالة تتفق مع الإيديولوجية أو العقيدة.

ويمثّل مفهوم الالتزام عند (جورج لوكاتش) موقفًا إيجابيًّا أو سلبيًّا من الوقائع في زمن الكاتب، ويعدّ الالتزام مفهومًا حديثًا في حقلي الأدب والنقد؛ إذ ظهر في العقود الأولى من القرن العشرين، التي شهدت تغيرات اجتماعية، وسياسية، واقتصادية بارزة ،ومنعطفات حادة مثل: الحرب الكونية، والثورة الاشتراكية، فقد تركت آثارًا مهمة في نظرية الأدب، ويشكل الالتزام فلسفة جديدة للأدب، ويتصل بالكاتب وعلاقاته المختلفة بالواقع.

لكن الالتزام في الأدب العربي اتّخذ دلالات أخرى ربطته بضرورة التزام الكتاب بقضايا المجتمع الكبرى كالثورة والوطن.

5- مبادئ نظرية الانعكاس:

وتقوم نظرية الانعكاس أساسا على المبادئ التالية:

1- تقوم نظرية الانعكاس على الفلسفة الواقعية المادية التي قامت على التفسير المادي والانتصار للطبقات الكادحة ضمن ما يسمى بصراع الطبقات.

2- أي تغيير في البناء الاقتصادي أو الاجتماعي يؤدي إلى تغيير في البناء الفوقي أو ما يسمى بالوعي، إن العلاقة بين البنائين علاقة جدلية ذات تأثير متبادل.

3- رفضت نظرية الانعكاس فكرة الفن الخالص والجمال الخالص كما رفضوا الأدب الذاتي والفردي والأهم من ذلك أنهم رفضوا أن تكون العواطف والانفعالات المحور الرئيس للأدب.

4- الأديب: مبتكر/فنان / مؤلف، لا يبدأ من الصفر، وهو مبدع نسبيا. وحين يبدع فإنه يعبر عن علاقته بالواقع ليكشف الخلل في تلك العلاقة وليقدم رؤية جديدة أكثر انسجاما من خلال عمله الأدبي، وحتى حينما يصور تجاربه الخاصة فهو عضو في الجماعة ومشكلته الخاصة هي جزء من مشكلات المجتمع، فحين يعبر يمزج الخاص بالعام والفردي بالجماعي ليحقق لتجربته شرط التواصل مع القراء.

5- الأدب: عمل /إنتاج/ صورة للمجتمع وعلاقاته، متطور ومتغير، له علاقة مع الزمان والمكان، وأبعاده فردية و اجتماعية، وهو فعالية اجتماعية وأن وظيفة الأدب ليس المتعة الجمالية أو المهارة اللغوية

بل يسعى الأديب أن نشاركه في التجربة بشكل يؤدي إلى تغيير وجهات نظرنا وافكارنا والهدف من كل ذلك هو خلق نوع من الانسجام الفكري والشعوري في الموقف الجماعي.

6- لغة الأدب: حتى على مستوى اللغة فإن الأديب يتعامل معها على أنها ظاهرة اجتماعية وهو مقيد بمستوى لغوي معين يحدده العرف الاجتماعي والثقافي والاقتصادي للمرحلة التي يعيش فيها الأديب.

7- المتلقي : جمهور غير متجانس، فاعل ومنفعل في الوقت نفسه يشارك في العملية الإبداعية من خلال مشاركة الأديب في تحليل الظواهر الاجتماعية وتفكيك تعقيداتها لتصبح واضحة وتساهم في تطوير المجتمع وخلق التجانس بين أفراده، وهو متلق ملتزم مثله مثل الأديب بقضايا المجتمع.